

أسرة شكسبير

كاتب الأعاجيب ليس فى سيرته خبر عجيب.

يقال هذا ويعاد فى مفتاح السير التى تروى لنا عجائب الأخبار فى الواقع والخيال، ويصدق على فئة كبيرة من أعلام الشعراء والكتّاب يصفون لنا أبطال العظام والغرائب ويخلقون لنا من أخيلتهم سيراً تشوقنا بما عمله أو بما تلقاه من صروف المحن والتجارب، ونعود إلى سيرتهم فى وقائعها وأخبارها فنعجب لخلوها من العجائب، ونحار كيف نضعها مع السير التى وصفوها لنا كما خلقها الله أو وضعوها لنا كما خلقوها من صنع القريحة والخيال.

وأصدق ما تقال هذه الكلمة حين تُقال عن وليام شكسبير، صاحب الروايات التى امتلأت بعجائب السير من وصفه ومما صنعه على يديه، ولا عجيبة فى سيرته من يوم مولده إلى يوم وفاته، إلا ما كتبه بقلمه وابتعثه على مسرح التمثيل ثم أبقاه على مسرح الحياة كأبقى ما يبقى الخلائق الأحياء.

إلا أننا - على ما يقال فى أحاديث الأرواح والأطياف - لا نبحث عن العجائب إلا وجدناها أماننا، وإن لم نجدها على تقديرنا وحسباننا، ولعلنا لا نبحث عن العجائب إلا لأنها تستدعيننا وتتخيل من وراء حجابها لنلقاها وتلقانا.

إن عظمة شكسبير أعجوبة خارقة، ولكننا لا نبحث عنها لأننا نراها حيثما رأينا شكسبير في عمله، ورأينا أنه عمل عظيم قليل النظر بين أعمال النابهين على غرار هـ.

ولكن العجيبة في هذه السيرة التي لا عجب فيها أنه ولد حين ولد، وأنه رحل من مسقط رأسه حين رحل عنه، وما من عجب في مولد أحد كما يولد سائر الناس ولا في هجرته من مسقط رأسه كما هاجر في زمنه مئات وألوف، ولكننا نعجب لهذا وذاك لأنهما توفيق من الحوادث يستوقف النظر ولو حسبناه في عداد المصادفات، لأن المصادفات من هذا القبيل، جديرة بالتنبيه والتسجيل.

ولد شكسبير سنة ١٥٦٤م في الوقت الذي نشأ فيه المسرح الثابت بخانات لندن وأصبح من ملاهي العاصمة التي لا يستغنى عنها أبناؤها ومن يرتادون خاناتها من وفود الريف، وعمد أصحاب الفرق التمثيلية إلى إقامة المسارح خارج أسوار المدينة بنجوة من تشريعها حين اشتدت وطأة الرقابة عليها من جانب عمدة العاصمة وزملائه في إدارة مجلسها، ثم غلبت رغبة النظارة من الخاصة والعامة في هذا الفن الجديد فاجتاحت أمامها عناد المجلس وبقايا العرف الموروثة وصلابة المتطهرين في مقاومة كل بدعة تدخل فيما يسمونه بالملاهي أو الألعاب، فأذنت الملكة بإقامة المسارح في المدينة وسوّغت أمرها بما اشترطته آنفاً من اجتناب المساس بالدين والأخلاق وشئون الحكم فيما يعرض على مسارح التمثيل من قصة

أو غناء، وعادت الأوامر الملكية التي تخطت تشريع المدينة في هذا الصدد فأكدت ما فرضته من قبل من شروط الاستقامة و«حسن السلوك» فيمن يشتغلون بهذه الصناعة، فلا يقبلون في زمرة الممثلين بالمسرح الثابتة إلا بشهادة من نبيل أو وجاه معروف عند ولاة الأمور.

وهاجر شكسبير إلى العاصمة حوالى سنة ١٥٨٦م بعد ارتفاع الحظر على التمثيل فيها بقليل.

هاجر إلى العاصمة وهو فى نحو الثالثة والعشرين من عمره، لأنه كان يعول أسرة عجز عن الإنفاق عليها وتدبير معيشتها بوسائله الميسورة له ولأهله فى الريف، وكان أهله من الريفيين ذوى اليسار، فأصابت أباه عسرة وهو فى الثانية عشرة، وعاش فى كفالة أبيه إلى ما بعد زواجه على اضطرار قبيل بلوغه العشرين، فلم يطق أن يضطلع بأعباء أسرته بعد أن تزوج ووُلد له الأبناء، وأوشك أن يطالب بالمشاركة فى معونة أبيه.

ترى هل كان يهجر الريف إلى المدينة لو دامت لأسرته النعمة التى توارثتها من أسلافها؟

ترى هل كان يخطر له أن يشتغل بالتمثيل لو بقى التمثيل كما كان قبل مولده صناعة من صناعات الأفاقين والجوالين الذين حشرهم العرف والقانون فى طغمة اللصوص والطرءاء المنبوذين؟

أغلب الغن أنه كان يطاوع مَلَكَة الشعر فينظم القصيدة كما نظمته أمثاله من الموهوبين، ويبلغ فيه غاية ما بلغه من الإبداع فى مقطوعات الأغانى والموشحات أو فى أقاصيص الغزل وتراجم الأساطير، وغاية ما بلغه فى هذا الفن يسلكه فى عداد المثات، أو الألوف، من شعراء الأمم فى مختلف اللغات، ولكنه لا يرفعه إلى منزلة الآحاد الذين لا تنطبق على عدهم أصابع اليدين، كما ارتفع - بموازين النقد جميعًا - فى فن الرواية المسرحية: فن الخلق والإبداع فى تصوير النفوس وتصوير العلاقات بينها على السواء.

أما أن يلحق بالفرق الجواله ويوطن النفس على عيشة كعيشة الطرداء والشذاذ فليس بالمستحيل ولكنه بعيد، وأبعد منه أن يرتقى فى صناعة المسرح الجواله إلى مكان يحتفل به تاريخ الآداب. إن القائلين إن السبب يبطل العجب يقولون صوابًا إذا أرادوا بمقالتهم أن عرفان السبب يريح من حيرة الأعجوبة التى تبده الذهن بما يذهله ويخالف مألوفه.

ولكنهم لا يقولون صوابًا إذا وقع فى ظنهم أن الأعاجيب بغير أسباب، فإن أعجب الأعاجيب له سببه كهذه الحوادث التى تشيع بيننا كل يوم وكل ساعة فيما نسمعه أو نراه.

وليس بطلان الحيرة وبطلان العجب بسواء، فإن الحيرة قد تبطل فى أمر نعرفه ونبذل إلى سره أو نحسب أننا قادرون على النفاذ إليه، ويظل الأمر بعد ذلك عجبًا نادرًا كأندر ما تكون الأعاجيب.

فربما كان شكسبير قد أحس في صباه قدرة على النظم وراقه بعض ما اطلع عليه من مناظر التمثيل في المدرسة أو في أحاديث قرائها من أبناء قريته، وفيها من قراء اللاتينية غير قليل.

وربما استمع إلى أحاديث أبناء القرية العائدين من العاصمة يتندرون بفتنة لندن وفتنة هذا الفن الجديد الذى يناهض سلطان مجلسها ويقهره على قبول ما يأباه فى عمر داره، فلا يملك أن يشوقه فن العاصمة الفاتن من بعيد، وإن فتنته للمستعدين لأقوى سحرًا وأعمق أثرًا من فتنته لمن يأنسون به ولا يزيدون على النظر إليه.

ولكنه كان ينبغى أن يولد حين ولد، وأن تدركه العسرة حين أدركته وأن يهجر وطنه حين اضطر إلى الهجرة، لينبغ فى العمل الوحيد الذى كان نبوغه فيه أعجوبة الأعاجيب.

وهذه العبقرية على عظمتها إحدى عبقریات لا تحصى نعلم منها أن هذه الهبة العالية قد يوافقها زمان دون زمان، وقد تصلح لها حالة دون حالة، ولكنها تعم البيئات جميعًا فى الريف والحضر، وفى الرخاء أو الشدة، وفى شواغل العلم أو العمل.

كان مولد شكسبير فى ولاية وارويك بقرية ستراتفورد على أصغر الأنهار التى تُعرَف باسم «أفون» وهى كلمة قلتية تقابل كلمة «نهير» باللغة الإنجليزية.

واسم شكسبير قديم فى الولاية يتركب من كلمتين بمعنى هزاز
الرمح، ولعله كان فى أصل التسمية لقباً مقصوداً بهذا المعنى، لأن
بحوث العلامة شيمبرز انتهت إلى رجل كان يسمى وليام شكسبير
- كاسم الشاعر - قضى عليه بالموت فى سنة ١٢٤٨م لأنه كان يسطو
على الأطراف يوم كان غزو الولايات والخروج على أمرائها آية من
آيات النخوة والمخاطرة. وليس فى الأسانيد التاريخية ما يدل على
صلة بين وليام شكسبير هذا ووليام شكسبير الشاعر.

أما أقدم المعروفين باسم شكسبير من المتصلين بنسب الشاعر فهو
جده ريتشارد شكسبير المتوفى سنة ١٥٦١م قبل مولد حفيده بثلاث
سنوات، وكان يزرع الأرض ويستأجرها ويرعى الماشية كما يؤخذ
من حكم محفوظ بتغريمه اثنى عشر بنساً لتسريحه فى مراعى
القرية قطيعاً يزيد على مائة رأس فى الرعية الواحدة.

وقد استقصى الباحثون فى سيرة الشاعر تراجم ثلاثة يدعون
باسم جون شكسبير بين منتصف القرن ونهايته، وهم غير جون
ريتشارد أبية الذى تكرر ذكره فى سجلات القرية، وكان يختار
له توقيعاً يشبه رسم القفاز لأنه يجهل الكتابة، وقد التبس الأمر
على بعض الذين تصدوا لترجمته بعد اشتهار ولده فذكروا مرة أنه
كان يحترف الجزارة ومرة أخرى أنه كان يحترف الدباغة، وربما
اشتغل بذبح الماشية وديغ الجلود لاستخدامها فى صناعة القفازات
التي جعلها فى توقيعه شارة صناعته، ومن جراء هذا التوسع فى

أعماله تعرض للحكم عليه بغرامة «اثنى عشر بنسًا» لأنه ترك القمامة فى الطريق، وهو إهمال لا يسلم منه من يحتاج فى عمله إلى رعى الماشية وذبحها وذبغ جلودها، وله فى هذه المخالفة شركاء مذكورون فى سجلات القرية.

وليس لترجمة جون شكسبير مصادر يوثق بها غير التوقيعات والعقود المحفوظة فى تلك السجلات، ومنها يعلم أنه ظل على حالة محمودة من اليسر والكفاية بعد وفاة أبيه، فاشترى فى سنة ١٥٥٦م بيتين من بيوت القرية الحسنة، وتزوج فى السنة التى تليها بمارى آردن بنت روبرت آردن صاحب الأرض التى كان يستأجرها ريتشارد شكسبير ويعيش من غلتها ومن رعى الماشية وبيعها، وهى فتاة متعلمة تنتمى إلى أسرة عريقة أغنى من أسرة زوجها؛ إذ كان أبوها يملك البيوت والأرض ويخص ماري وحدها بعد وفاته بستين فداناً غير بعض الحصص الموزعة فى ميراث الأرض والمال، ولا شك أنه آثرها بأفضل الحصص بين أخواتها الثمان، إما لأنها كانت أصغرهن أو لأنه كان يأنس فيها النجابة والتفوق فى الذكاء والمودة على أخواتها.

وولدت ماري لجون شكسبير طفلتها حنة (١٥٥٨م) التى ماتت فى طفولتها، ثم طفلة أخرى سمياها مرجريت (١٥٦٢م) ماتت بعد خمسة أشهر، ثم ولدت أول أبنائها وليام (٢٣ أبريل سنة ١٥٦٤م) ورزقا بعده بثلاثة أبناء هم جلبرت وريتشارد وإدموند وبنيتين

هما: حنة وآن. وتوفيت ماري سنة ١٦٠٨م بعد وفاة زوجها جون بست سنوات.

وكانت حالة جون قد اطردت في التقدم والرخاء بعد زواجه إلى سنة ١٥٧٥م حين اشترى منزلين آخرين غير منازلها التي كانت له قبل الزواج، ثم تقلبت به صروف التجارة والصناعة في أيام التحول الاقتصادي الذي طرأ في البلاد الإنجليزية على تجارة الداخل والخارج ونظام التصدير والاستيراد وتداول المراكز التجارية بين القرى والحوضر ومدن السواحل، فطاحت الأزمة بعتاده وعتاد زوجته وأثقلت كاهله بالمتاعب والهموم حتى شغلته عن وظائفه العامة في القرية، وكان قد تولى منها عدة وظائف هامة كأمانة الخزانة ووكالة الدعاوى ورئاسة المشايخ فاعتزلها أو عَزَلَ منها، وعيّن مجلسُ القرية بديلاً له لانقطاعه عن جلساته.

ويجهل التاريخ تفاصيل هذه المحنة لأنها لم ترد في سجلات القرية المحفوظة، إلا ما كان من خبر هنا وخبر هناك عن القضايا التي رفعت عليه والديون التي طُلب بها والعقود التي دونت فيها الرهون أو الإجازات، ولكن الخطأ في محنته إنما كان من أخطاء الضرورة التي أوقعه فيها التوسع في أعماله بين صناعة القفازات وزراعة الأرض وتجارة المبيعات من محصول الزراعة والصناعة ومباشرة الوظائف المتعددة في مجلس القرية، وغير ذلك من متاعب البيت ومطالب البنين والبنات، ولم يثبت في تاريخه المسجل ما يدينه بسيئة من سيئات الخلق أو سيئات الخطل المعيب.

ويظهر من أسماء ذرية شكسبير أن الأبناء والبنات من هذه الذرية كانوا يسمون بأسماء أقربائهم وقربياتهم من العمومة والخنولة، وأنهم كانوا يقيمون في قراهم ولا يطلبون الاغتراب عنها، وأن إخوة شكسبير الذكور لم يعمرُوا ولم يخلّفوه، إذ ماتت جلبرت في السادسة والأربعين ومات إدmond في السابعة والعشرين ومات ريتشارد في التاسعة والثلاثين، ولم يشتغل منهم غير واحد بصناعة التمثيل وهو أصغرهم إدmond الذى ولد سنة ١٥٨٠م وتوفى سنة ١٦٠٧م.

وقد توفيت البنات صغيرات، فماتت حنة الأولى وأختها مرجريت في سن الرضاع، وماتت آن أصغرهن في الثامنة من عمرها، ولم تبلغ منهن سن الشيخوخة غير حنة الثانية التى سميت على اسم أختها المتوفاة، فإنها ولدت سنة ١٥٦٩م وتوفيت سنة ١٦٤٦م.

فى هذه الأسرة الريفية نشأ وليام شكسبير بن جون بن ريتشارد شكسبير، ويخيل إلينا الآن أنه يحل منها فى مكان ناشز غير معد لأمثاله. لأنها فى جميع سماتها وعاداتها تطرد على شاكلة الأسر الريفية التى تتطلع إلى الستر أو الوجاهة ولا تطمح إلى مكان فى العالم فوق ذلك أو وراء ذلك، ثم يصعد من بينها هذا الاسم الذى لا يدانيه فى آفاق الشهرة الإنسانية غير آحاد معدودين،

فليس فى أبناء الأسر المالكة ولا فى أبناء العروش الإمبراطورية من اشتهروا مثل شهرته وعننى الناس بأقوالهم وأخبارهم عنايتهم بأقواله وأخباره، وإذا استثنينا الرسل والأنبياء من أصحاب الأديان الكبرى فليس فى أصحاب الأقلام منذ كتب الإنسان بالقلم عشرة يعدون معه فى الصف الأول الذى تقدم إليه بين الصفوف العباقره العالميين. لا جرم يتخيل المتخيل حين ينتقل من سيرة ذويه إلى سيرته أنه ينتقل من جو إلى جو ومن عالم إلى عالم، وأن هذه الشهرة الضافية نشوز فى تلك الرقعة الضيقة من تلك القرية المنزوية فى بعض الطريق.

لكن الواقع أن وليم شكسبير، قبل اشتهاره وبعد اشتهاره، هو ابن تلك الأسرة فى الصميم، وهو سليلها الذى نعرفه ونعرفها فلا ندرى كيف ينشأ فى غيرها، وهو بتلك الخلائق وتلك المشارب وتلك السيرة من المولد إلى المات.

وما من علم من أعلام التاريخ يغنينا العلم به عن العلم بكل صغيرة وكبيرة من شئون أسرته إذا استطعنا النفاذ إلى بواطنها وأسرارها؛ لأننا نفهمه كلما فهمنا كيف نشأ ومن أين أتى وماذا أخذ وماذا ترك من طبائع وسمات تظهر فى قومه أو لا تظهر، ولكننا أحوج ما نكون إلى العلم بتاريخ الأسرة فى هذا المقام، لأن القليل الذى علمناه منه يفسر لنا الكثير مما يحسبه المترجمون ألغازاً فى حياة الشاعر والفنان، ولو ازددنا علماً بتاريخه فى قريته وفى بيته لما بقى فى سيرته ما يحسب فى عداد الألغاز.

ولد وليام فى الثالث والعشرين من شهر أبريل سنة ١٥٦٤م، وعمد فى السادس والعشرين من ذلك الشهر فى كنيسة القرية، فكتب اسمه فى دفاترها كما يكتب بالصيغة اللاتينية، وتولى تعميده فيها القس برتشجيرد Bretchgirdle المشهور بحماسته للدعوة البروتستانتية، وكان قس الكنيسة يوم كان جون شكسبير من أمناء مجلسها.

ولا يعرف على التحقيق شىء عن تعليم وليام قبل سن التلمذة فى مدرسة القرية، فربما تعلم مبادئ الهجاء والمطالعة فى البيت قبل الثامنة من عمره: تعلمها من أمه إذا صح أنها كانت على معرفة حسنة بالكتابة كغيرها من بنات أغنياء الريف، أو تعلمها من مدرس يزورهم بين زوار أبيه، وكان يومئذ من وجوه القرية المقصودين. وحانت سن القبول فى مدرسة القرية فدخلها وانتظم فى فصولها نحو خمس سنوات، وقد كان لهذه المدرسة نظار من خريجي جامعة أكسفورد يذكرون بأسمائهم فى سجلات المجلس والكنيسة، وكان برنامج الدراسة فى هذه المدارس التى اشتهرت باسم مدارس الأجرومية الحرة متفقاً على دروس مقررة فى أنحاء البلاد الإنجليزية، يتلقى التلاميذ بعد مبادئ القراءة والحساب طرفاً من اللغة اللاتينية، ويقرأون فيها حكايات إيسوب ومختارات من شيشرون وفرجيل وهوراس وأوفيد، ويمثلون بعض مناظر بلوتس وسينكا ويستظهرون نبذاً من كتابات البلغاء فى القرون الوسطى،

ولا يدرسون من الإغريقية إلا ما يمكنهم من مراجعة الآيات فى الكتب الدينية.

وحلت الضائقة بوالد وليام وهو فى نحو الثانية عشرة، فترك المدرسة فى هذه السن أو بعدها بقليل، وعكف على مساعدة أبيه فى صناعته وتجارته ورعى ماشيته، وهى أعمال يستفيد منها الصبى الناشئ خبرة بالناس وبالطبيعة قلما تيسر له فى كتبه المدرسية. وفى الثامنة عشرة تزوج بـ «آن» كبرى بنات أبيها من أسرة هاثواى الريفية، وكانت تكبره بثمانى سنوات، لأنها توفيت سنة ١٦٢٣م وهى فى السابعة والستين، فكان مولدها بين سنة ١٥٥٥م وسنة ١٥٥٦م، ويفهم من صيغة وثيقة الزواج أنه تم بعد تردد من الأسقف المنوط به تدوين هذه العقود؛ فإن الوثيقة كتبت فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٥٨٢م، وفى الثامن والعشرين منه كتبت وثيقة أخرى يشهد فيها رجلان من مقدمى الفلاحين أنهما مسئولان عن كل طعن فى الوثيقة يعرض الأسقف لتبعة المخالفة لحكم القانون.

ويظهر بعد ذلك من تاريخ ولادة البنت الكبرى «سوسن» وليام شكسبير أن أسقف التعميد داخلته الشبهة لسبب لا يخفى، فإن الطفلة عمدت فى السادس والعشرين من شهر مايو من السنة التالية أى بعد ستة أشهر من تاريخ وثيقة الزواج، ووجب الاعتراف بهذه الشبهة التى بادرت الأسرتان إلى الاتفاق على تصحيحها، إثباتاً

للعلاقة الشرعية دون مساس بصحة التسجيلات فى تاريخ الزواج
أو تاريخ الولادة.

وبعد ولادة سوسن بسنتين (فى الثانى من شهر فبراير سنة
١٥٨٥م) ولد له توأمان - ذكر وأنثى - سُمى الذكر هامنت والأنثى
جوديث، وأصبح لزاماً عليه أن يبحث عن مورد للرزق غير مورده
النزر المضطرب الذى يأتية من معونة أبيه فى متجره ومصنعه،
وكانت الضائقة التى حلت بأسرته تستحکم وتتأزم ولا تؤذن
بانفراج قريب، فى السنة التى ولد فيها هذان التوأمان اضطر أبوه
إلى التخلف عن أعماله بمجلس القرية ودواوينها، فحسر وظائفه
فى الحكومة كما حسر ثروته فى التجارة والصناعة، وأصبح لزاماً
على وليام أكبر أبنائه ورب الأسرة الوحيد بينهم أن يستقل بعمل
يكفيه أو يهجر القرية ليعول نفسه وأهله ما استطاع.

ومرت من أواخر هذه السنة إلى سنة ١٥٩١م فترة فراغ فى
ترجمة وليام لم يسمع فيها خبر عنه فى القرية ولا فى لندن حيث
يغلب على الظن أنه أقام فى هجرته الأولى، وكثرت الأقاويل عن
هذه الفترة على غير هدى لملء هذا الفراغ.

ولإيضاح الغوامض والشبهات التى أثارتها بحوث النقاد
وشكوك المعترضين والمعجبين معاً بعد استفاضة ذكره وتشعب الآراء
فى نسبة أعماله إليه أو إلى غيره. ويذهب الأكثرون من أصحاب

الأقوييل المختلفة فى ملء فراغ هذه السنوات مذاهب من الظن أو التخمين لا سند لها من الوقائع ولا من الشهادات المسلمة أو الوثائق المتفق عليها، وإنما يأخذون فيها بالقرينة والاحتمال القريب قياساً على المعهود من أحوال العصر أو أحوال المترجم وأمثاله، وبعضها رجم بالظن لا يرجع إلى شهادة عيان ولا إلى شهادة سماع مقبول، وقد تكون القرينة فى نفيه أقوى من القرينة فى ترجيحه.

فمن قائل إنه هجر القرية هرباً من القصاص الذى أنذره به أحد النبلاء فى الإقليم - سير توماس لوسى - لأنه علم أن وليام يطارد الصيد خلصة فى أرضه بجوار ستراتفورد، ومن قائل إنه هرب من القرية على غير علم من أهله ليلحق بفرقة من فرق التمثيل الجوالفة فى الريف، ومن قائل إنه خرج من الجزيرة البريطانية كلها فى رحلة من رحلات البعوث العسكرية التى كانت تتردد ذهاباً وجيئة بين إنجلترا وشواطئ أوروبا الغربية، ويعتقد صاحب كتاب «شكسبير الحق» أنه لم يقصد إلى لندن عندما هجر قريته على أثر مولد طفليه، بل قصد توتوا إلى بليموث وركب البحر منها إلى بلاد المشرق بعد زيارة البلاد الإيطالية، لأن أوصافه لهذه البلاد أحجى أن تكون أوصاف خبرة عيان⁽¹⁾.

ويعتقد صاحب كتاب «شكسبير بين الصدق والرواية» أنه كان يختلف إلى جامعة أكسفورد قبل زواجه بسنوات، وأنه لم ينقطع

(1) The Real Shakespeare by William Bills.

عنها إلا بعد عقد الزواج وإلحاح الحاجة عليه بالتماس وجوه العمل لتدبير نفقات البيت، وأنه عمل بمدرسة القرية في هذه الفترة كما جاء في بعض أنبائه، ولا يتشكك صاحب هذه الرواية في احتمالها لخلو دفاتر القيد بالجامعة والمدرسة من اسم شكسبير، إذ كانت هذه الدفاتر خلواً من بعض الأعلام الذين حضروا دروس الجامعة باتفاق المؤرخين وأشهر هؤلاء الأعلام «أوليفر كرمويل» زعيم الثورة بعد جيل شكسبير⁽¹⁾.

ويتساوى ملء الفراغ بهذه الأقاويل وترك الفراغ لمن يشاء أن يملأه بأمثالها من التخمينات التي لا تقطع فيها الحجة بنقض ولا بتوكيد.

قال الشاعر الناقد جون ماسفيلد في كتابه عن شكسبير بعد الإلمام بطائفة من هذه الأقاويل: «كل هذا ليس بالبينة ولا بالرواية ولكنه تخمين جامح، وقد يقال مثله إنه ارتقى عرشاً أو صار من قدماء الرومان أو عمل في صناعة النسيج أو افتتح حانة شراب، ولا فرق في السند بين ما قيل وما يقال على هذا المثال».

هذه قيمة التخمينات والفروض التي تواترت في أقوال الشراح والنقاد ملء فراغ هذه السنوات في ميزان ناقد ملهم معجب أيما

(1) Shakespeare Truth and Tradition by John Simple Smart.

إعجاب بالشاعر الكبير، وليس في كلامه عن تلك الفروض مبالغة في جوهر الحقيقة، إلا أن تكون مبالغة السخرية والتعميم، يستدرکها من شاء بالتفرقة بين الفروض التي تركز إلى سند من الواقع وصدق الظن والفروض التي لا تركز إلى شيء غير الوهم وخبط عشواء.

وبعد هذه الفترة من الفراغ في سيرة وليام نسمع به في سنة ١٥٩١م، ونعلم أن هذه السنة كانت نهاية السنوات العجاف في حياته، وأنه قد انتظم في صناعة التمثيل والتأليف، وعمل في أكبر الفرق التمثيلية وهي فرقة الإيرل أف لسيستر التي من أجلها أباحت الملكة اليصابات إقامة المسارح في العاصمة.

وهنا محل لاستقصاء فرض من الفروض التي ذهب إليها مؤرخوه ليملاًوا به فراغ السيرة في السنوات الخالية، ولكنه فرض له سند من الواقع والاحتمال جدير بالالتفات إليه من طرفيه.

فمن المحقق أن وليام لم يشتغل بالتمثيل في تلك الفرقة إلا بعد تمهيد طريقه إلى قصر آل لسيستر للظفر بالشهادة التي لا غنى عنها لمن يريد أن يشتغل بالتمثيل ولا يحسب - في رأى الشرطة - من طغمة الشذاذ والأفاقين.

ومن المحقق أن «لسيستر» غادر لندن على رأس بعثة عسكرية إلى الأرض الواطنة لمؤازرة الهولنديين في حربهم للدولة الإسبانية، وكانت مغادرته للعاصمة في سنة ١٥٨٥م التي انقطعت فيها أخبار وليام من القرية ومن العاصمة ومن كل مكان في الجزيرة البريطانية.

ومن المحقق أن لسيستر قد استدعى للسفر في حاشيته الممثل الهزلى كمبس Kempis الذى كان نديمه المختار من رجال فرقته وكان فى قصره بمثابة «المضحك» الخاص فى قصور الملوك الأقدمين، ولا يبعد أن يكون قد صاحبه فى تلك البعثة أيضاً خمسة من ممثليه الذين زاملهم شكسبير بعد ذلك فى الفرقة التمثيلية، لأن هؤلاء الممثلين الخمسة - وبينهم أشهرهم جورج بريان - كانوا يستدعون للتمثيل فى القصور الملكية بين سنتى ١٥٨٦م، ١٥٨٧م ويقومون الحفلات فى بلاط الدنمارك وبلاط سكسونية، كما جاء فى أخبار دعوات البلاط بالملكتين.

ويلاحظ أن «كمبس» الذى لا شك فى سفره مع لسيستر فى بعثته إلى هولندا كان مقيداً فى هذه البعثة باسم دون جولهم Gulihelmo ولم يقيد باسمه المشهور بين رواد المسرح، فلا يبعد أن يكون وليام وزملاؤه - فى المستقبل - قد دخلوا هذه البعثة بأسماء غير أسمائهم المتداولة فى غير السجلات العسكرية، وأنه مهد طريقه إلى صحبة لسيستر أثناء غيابه عن البلاد الإنجليزية، لأن التعرف إلى هذا القائد النبيل صاحب المقام الأول والحظوة الأثيرة فى البلاط لا يتم بعد عودته من القارة فى وقت قصير.

والمعروف من سيرة وليام بعد سنة «١٥٩١م» قليل بالقياس إلى أخبار نظرائه وإن لم يكن أقل من أخبار معاصريه، ولكن هذا القليل كاف للعلم بنجاحه وارتفاع شأنه، وانصراف همته إلى تعزيز

مكانته فى المجتمع ورد المفقود من تراث أهله فى قريته، فحصل على حلة من حلل التشريف «الرسمية» تخوله التلقب بلقب السيد أو الجنتلمان، وسُجل أداء الرسوم لهذه الحلة فى شهر أكتوبر سنة «١٥٩٦م» وشارك فى مسارح العاصمة مع انتمائه إلى فرقة لسيستر إلى آخر أيامه فى التمثيل، وحاول جهده أن يستعيد حصص الأرض التى ضاعت من أسرته بالرهن أو البيع، واستعاد منها ما ارتضى مالكوها أن يبيعه، واقتنى البيوت والأكواخ لسكنه وسكن أقربائه، واشترى فى سنة ١٦٠٢م مائة وسبعة وعشرين فداناً فى ستراتفورڊ القديمة، ثم عاد إلى مسقط رأسه ليقيم فيه سنة ١٦١١م، وبقي ثمة إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٦١٦م فى الثانية والخمسين من عمره، لا يفارق بلده إلا لينظر فى بعض أعماله بالعاصمة، ثم يكر إليها راجعاً متزوداً له ولأقربائه فيها بما تتطلبه حياة المستورين من أهل الريف.

وفى أوائل سنة ١٦١٦م أحس الشاعر بدنو أجله فكتب وصيته فى شهر يناير من تلك السنة ونقحها فى الخامس والعشرين من شهر مارس قبل وفاته بأقل من شهر، وأوصى فيها بحصص مقدرة من المال والأرض والعقار وبقايا الأثاث والعتاد لزوجته ومن بقى من ذريته بقيد الحياة، وهن سوسن بنته الكبرى، وجوديث بنته الصغرى، وحفيدته اليبابات، لأن ابنه الوحيد «هامنت» كان قد مات صغيراً سنة (١٥٩٦م) فى الحادية عشرة من عمره، وأوصى ببعض الهبات

والهدايا لفقراء القرية ولأفراد من مساعديه وصحبه، ولم يذكر شيئاً فى الوصية عن حصصه فى المسرحين اللذين كان شريكا فيهما إلى ما بعد سفره من لندن، كأنه كان قد باع ما يملكه فى غير قريته حين شعر باقتراب أجله.

ومات فى الثالث والعشرين من شهر أبريل، أى فى نفس اليوم الذى ولد فيه، وأعد قبيل وفاته أسطراً من الشعر أوصى بكتابتها على ضريحه فى مقبرة الكنيسة، فحواها التذكير بحرمة العظام المطوية فى رجامها، ودعاء بالبركة لمن يرهاها وباللعنة لمن يحركها من مكانها.

وقد كتبت الأسطر المنظومة بلغة ساذجة تشبه لغة العامة، واستدل بعض المتأخرين بهذه الساذجة على أن الأسطر المنظومة وأشعار الروايات والدواوين لم يكتبوا بقلم واحد، ولكن الأسطر ولا شك كانت مكتوبة باللغة الشائعة فى القبريات التى تعودها أبناء الريف، ولم يكن من السائغ أن تكتب بالأسلوب الفخم الذى يتخيره الشعراء لمنظوماتهم الأدبية.

ونسى أناس آخرون من الشراح والمعقبين زمان الشاعر ومكانه فى موطنه، فوهموا أنه كتب تلك القبرية لأنه توقع أن تحتفى الأمة بذكراه وتنقل رفاتة إلى المكان الذى جعلوه بعد ذلك مثوى للعلية من النوابغ والعظماء فى كنيسة وستمنستر، ولكن القبرية تفهم على وجهها الصحيح من حيث الأسلوب والمعنى إذا فهمت

على أنها «وصية محلية» يقرأها أبناء تلك الجيرة ممن يطيفون بالمقبرة ويباشرون دفن موتاهم بين جدرانها، وقد زار ستراتفورد قبل نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٤م) أديب من خريجي أكسفورد يسمى وليام هول، فقال في رسالة كتبها إلى صديق: «إنني ذهبت في اليوم التالي لزيارة رفات شكسبير العظيم المدفون في الكنيسة، فقرأت الأسطر التي أمر في حياته بحفرها على شاهد قبره، وفيها من قلة الدلائل على العلم ما قد يبين عن قلته في غيرها لولا أنها تنطوي على شيء يحتاج إلى تعقيب. فإن في الكنيسة موضعاً يطلقون عليه اسم منزل العظام ويودعونه بقايا العظام المستخرجة من حفائر المقبرة، وهي من الكثرة بحيث تملأ المركبات الكثيرة، وقد أراد الشاعر أن تترك عظامه آمنة في مثواها فلعن من ينبش عنها ترابها، ووجه الخطاب إلى عمال الكنيسة وخدمتها، وهم على الأغلب الأعم شردمة من أجهل الناس...».

وليست هذه الصفحة الأخيرة بالصفحة الوحيدة التي نفهمها حق فهمها حين نفهم وليام شكسبير في قريته وبين آلِه وعشيرته؛ فإن السيرة كلها صفحات لا نفهم سطورها ولا ما بين سطورها بمعزل عن بيئة القرية وما احتوته من بيئة الأسرة بين جوانبها. فينبغي أن نحضرفي أخلاذنا أن وليام شكسبير - في أخلاقه وعاداته - وريث أسرة ريفية حريصة جد الحرص على السمات

والسمعة وكرامة الجاه على سنة أهل الريف فى عصره، وأنه كان بين إخوته سليل جيل قصير الأعمار يندر بين رجاله خاصة من كان يناهز سن الشيخوخة أو يقارب الستين.

ويغنيننا إحصار هذه الصفة فى أخلادنا عن أسئلة كثيرة سألتها المترجمون والشراح ونظروا فيها إلى سيرته العالمية دون أن يرجعوا بها إلى سيرته فى أسرته وقريته فضلوا عن جوابها فى متاهة الظنون، وإن جوابها لعلى منال اليد منهم لو التفتوا إليه.

لماذا هاجر من قريته؟ ولماذا توارى عن الأعين والأسماع ست سنوات أو سبعا بعد هذه الهجرة؟ لماذا كف عن الكتابة بعد الأربعين بقليل؟ لماذا ترك لندن وانزوى فى قريته ولما تجاوز الخامسة والأربعين؟ من أين جاء العلم بمراسم الشريعة وإجراءات دعاوى ومصطلحات المحاكم والقضاة؟ ومن أين جاءه العلم برياضة الصيد وطبائع الحيوان؟

أسئلة لا يسألها من عرفه متصلاً بمسقط رأسه مشاركاً لآله وعشيرته فى عاداته وشمائله ومعايير السمعة والشرف فى نظره. فهجرته من قريته فى الموعد الذى هاجر فيه بعد أن عال وثقلت نفقته على أهله وثقلت نفقتهم عليه، وولد له فى سنة الهجرة توأمان، وأبوه يخسر جاه الوظيفة وجاه التجارة فى تلك السنة ولا يحسن بابنه الشاب فى نحو العشرين أن يبقى كلاً عليه، وباب

الهجرة مفتوح على مصراعيه أمام شبان القرى والعواصم مع بعوث السلم والحرب فى المشرق والمغرب.

وكما هجر قريته يوم اضطر إلى الهجرة عاد إلى الظهور يوم استطاع أن يظهر بعمل مرضى موفور الكرامة لا يخجله أن ينتسب إليه إذا استعان بمورده منه على معونة أهله.

ولقد كف عن الكتابة قبل الخامسة والأربعين، فكان قعوده عن عمله الناجح من غرائب سيرته التى لا بد لها من تأويل لا يستغربونه كما يستغرب من المؤلف الناجح هذا القعود فى عنفوان قواه. فلماذا لا يكون هذا التأويل أنه لم يكتب ولم يقعد عن الكتابة، وإنما كتبت له الروايات والقصائد ومات كاتبها المزعوم فانقطع فى وسط الطريق.

ولكن الخامسة والأربعين، أو نحوها، ليست بمنصف الطريق عند من يبلغ أمده فى الثانية والخمسين، وليس المضى فى الكتابة بالعمل الميسر لمن يشرف على مسرحه ويشرف معه على مسرحين كبيرين له فيهما حصّة الشريك وحصّة الخبير بشئون التمثيل والإخراج، وقد تشغله من قبل أسرته وعشيرته أعمال تتجدد وتتكاثر عامًا بعد عام، على قلة المعين وشدة العناية بمن يعولهم هنالك من صغار أو كبار.

ونجاح المؤلف فى كتابة الروايات لا يعنى أنه يملك باختياره أن يمضى فى كتابتها إلى غير انتهاء، فربما كان الانتهاء إلى القمة

غاية شوط النجاح، وربما كان المؤلف قد استنفد حاجته وحاجة عصره إلى هذا النمط من الروايات كما ظهر من هبوط منزلة المسرح بعد عهد الملكة اليصابات بقليل.

وقد أقام الشاعر فى لندن ما أقام فلا نخال أن مقامه بها زهده فى معيشة الاستقرار والسكينة بين أحضان الطبيعة، إذ كانت لندن فى أوائل القرن السابع عشر تستهل عهد العظمة والصولة ولكنها كانت أبعد شىء عن الطمأنينة والدعة، وكانت تجتذب إليها طلاب المغامرة والمخاطرة وتضطرب بلواعج النزاع على مذاهب الدين ومذاهب الفكر ومآرب السياسة بين بيوت الملك وأشيع المتألبين لها من أصحاب الدولة الدائلة أو أصحاب السلطان القائم، وقد رأى شكسبير فيها مصارع خمسة أو ستة من أصدقائه النبلاء والمتأدبين، طاحت رؤوسهم أو نكبوا فى مناصبهم وأموالهم، ولم يسلم صاحبه لسيستر من بينهم بعد الحكم عليه بالموت إلا لما صادفه من الحظ والحظوة فى أعين الملكة التى كانت تدنيه وتقصيه على حكم الدسيسة والفتنة، ولم يسلم صديقه الشاعر مارلو من الاتهام بالكفر ولا من الاغتيال المريب مع اتصاله الخفى بعيون الدولة وجواسيسها، وليس من شأن هذه الحياة القلقة أن تصرف رجلاً فى مزاج شكسبير عن الحنين إلى قريته ومآلف صباه، بل لعلها عجلت بعزيمة العودة إليها وجعلت هذه الراحة أمنية من

أمانى النجاح فى عمله، وقد يحن مثله إلى الليان بأحضان الطبيعة
ولو لم تربطه بها مآلف الصبا وأواصر الجيرة والقراة.

وقد تقدم أن المتشككين حسبوا من غرائب هذا القروى الذى
خرج من مدارس الريف قبل أن يكمل تعليمه فيها أنه يعرف من
مراسم القضاء ومصطلحات المحاكم ما تحتويه الروايات المنسوبة
إليه، ولكن هذه النشأة القروية - نشأة شكسبير خاصة - أحجى
أن تمنع العجب وإن كانت لا تمنع الإعجاب، فإنه نشأ فى بيت
يكثرفيه الكلام عن القضايا والدعاوى ويعمل أبوه فى مجالسها
ومنتدياتها، وما لم يعرفه من وظيفة المجلس فهو خليق أن يعرفه
من عقود الصفقات والمعاملات التى سيق إليها فى حالتى رواجه
وكساده، وخليق بابنه الأكبر أن يزداد علمًا بأحاديث القضايا
والذرائع القانونية بعد هجرته من القرية إلى عاصمة المملكة فى
عصر المحاكمات والتهم والشايات، وهى من ضروب الأحاديث
التى تطول جرائرها إلى زمن بعيد، ولا تخلو حواشى النبلاء
وحلقات الأدب والفن من اللغط بها والتشدد بعباراتها وادعاء العلم
بخفاياها والتشيع لهذا أو ذاك من المدعين أو المدينين فيها.

أما العلم برياسة الصيد فلا يستغرب من القروى المقيم فى
الريف، ولا سيما الريف الذى ولد فيه الشاعر واشتغل فيه بتربية
الحيوان ورعايته على مقربة من مروج الصيد المشهورة فى الأقاليم
الإنجليزية، ومن عادة المشاهدين للصيد أن يشهدوه فى الخلاء وعند

أرباض المدن ولا يشهدوه حيث يقيم النبلاء فى عمائرهم وقصورهم،
ومنها ما لم يكن محجوباً عن شكسبير أيام انتمائه إلى رعاة المسرح
من أولئك النبلاء.

ولنسأل ما شئنا أن نسأل عن غرائب هذه العبقرية العالمية فإننا
لا نهتدى إلى جواب سؤال منها إذا ابتعدنا بها عن قريته وأسرته،
ولعلنا حين نقترّب بها من القرية والأسرة لا نحتاج إلى سؤال.
